This article has been scanned by iThenticat No plagiarism detected

Volume 3, Issue 2, April 2021
p. 46-54

THE STERILE TIME REVOLVES AROUND ITSELF IN THE CONTEMPORARY IRAQI NOVEL

<http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.2-3.5>

Shamim Radhi ABD¹

Abstract:

In this research paper, I scanned time in the Iraqi novel and presented a brief analysis about the conception of the narrative time and its indications in the novel, in addition to the most crucial times that stormed the Iraqi novel.

I found out that these texts of novels are connected with the reality of misery and deprivation during the events that occurred in Baghdad before and after the U.S.-led invasion in 2003.

Thus, the vast reality appeared having multiple times and there is no certain time available to be the lonely scale that forms its personalities since past and present are the most controversial issues in the novel which are reflected in the form of it in particular the destiny of the most characters are not decided in the end of the novel.

Key words: Sterile Time, The Iraqi Novel, Time in The Novel.

Received :
11/03/2021

Accepted:
18/03/2021

Published:
01/04/2021

¹ Dr. , Al-Turath University College, Iraq, Shameemradi@gmail.com, <https://orcid.org/0000-0002-2276-092X>

الزمن العقيم يدور حول نفسه في الرواية العراقية المعاصرة

شميم راضي عبد²

الملخص

يَعُدُّ الزمن العمود الفقري الأساس في تشكيل بنية النص الروائي، فمن خلاله ونظراً لتكسّر مسار زمن الخطاب في نصوص الرواية العراقية؛ إذ تداخلت الأزمنة وتشابكت بما يُفضي إلى توسيعها لجعل مكانه، وما على الروائي إلا تكثيف الإحساس بالحكاية؛ لكي يجعل من إيقاع الزمن ضرباً يتيح لنا تقليب النظر والتأمل في تنظيم حضور ذات الراوي في النص، هذا الحضور يجنح نحو الداخل ويحاول قدر المستطاع الانفلات من أي مسألة فوقية. ينطلق الروائي في التعبير عن الأيديولوجية الفكرية والسياسية والاجتماعية، ويستكشف ملامح إبداعية جديدة فيسعى إلى تغيير واقعه من خلال علاقته مع إيقاع النص الروائي. وتعمل الرؤية الأيديولوجية في الرواية العراقية على مجابهة الواقع، من أجل إحلال عالم بديل يكون بمثابة استجابة واعية للتحوّلات الواقع وانعطافاته. **الكلمات المفتاحية:** الزمن العقيم، الرواية العراقية، الزمن في الرواية.

المقدمة:

لقد حظي الزمن في الرواية باهتمام الباحثين والنقاد كل بحسب رؤيته المرحلية وطبيعة الاتجاه النقدي الذي يتوصّل به لدراسة ذلك الفن، لقد أفضى زمن بعد التغيير _ أي بعد عام 2003م _ بتغيّر في البنية الاجتماعية والثقافية إلى طرح زمن آخر يشيء بالإرهابات والمتغيرات، وكان ماثلاً بالنمو والتحوّل والانعطاف، فكان لا بد من أفكار سريعة ومختصرة، تقتضب لملمة زمن التشظي، وتتمخض الرواية إلى التناقض الذي تمر فيه الجدلية بين الزمان الشخصية، وكان التركيز على الزمن النفسي الذي يطول ويقصر على وفق الحالة النفسية لهذا فقد استطاعت الرواية بفضل خصائصها المرنة أن تتكيف مع الزمن الأدبي لتشكل أفقاً لطبيعة المراحل المتغيرة بطريقة لم تستطع الفنون الأخرى التكيف معها.

لقد ظهر إحساس الروائيين بالزمن في بحثهم من عوالم أخرى تحمل في طياتها زمن مطلق لا يخضع للتسلسل المنطقي من خلال عالم الأساطير التي تحمل دلالة الزمن المتجاوز بكل قرائن الربط بالحظة الآنية، فالأحداث والتشويق وسرعة الحركة والعلاقات النسبية ووجهة النظر ليست إلا تجسيدا "لعامل الزمن في الرواية".

أفضى زمن الرواية العراقية المعاصرة إلى ولادة زمن شرس لا يقدر على منازلته أحد، زمن انطوى على ذاته، بسبب طغيان السلطة، فهو بذلك يرسّخ زمناً طاعياً يتأبى على المقاومة والتصدي، إنه زمن موت الحقيقة، وزمن موت الإرادة، وزمن موت النضال، إذ تضطلع بتمويه حقيقته، وبالتالي قمع معارضيته، سلطة مستبدة تهيمن على الخيرات، ولعل السياق الزمني الذي تمّ توظيفه في تلك الحقبة وجد مظهراته في بعض الرؤى الفنية التي وجدت امتدادها في الأيديولوجيات السياسية والقومية والدينية؛ ذلك لأن أغلب الدراسات النقدية انطلقت من المنهج الفكري واستعملت مفهوم الرؤية التي أصبحت عنصراً مشتركاً في المبدع والعالم الدافعي.

ومن هنا يمكننا القول إنّ الرواية العراقية بعد 2003م لم تعتمد على التوارد الزمني في دهاليز فصولها، بل اعتمدت على تقنية "التكسير الخطي"، هذا التكسير يعمل على خلق نوع من التوازي بين الأزمنة واللحظات بشكل يكسّر توالي الأحداث، ومن هنا انطلقت الباحثة لتضع عنواناً لبحثها فوسّمت بـ (الزمن العقيم يدور حول نفسه في الرواية العراقية المعاصرة)، واقتضت طبيعة مادة البحث أن تكون على تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، جاء التمهيد بتوضيح للمصطلحات الأساسية التي ضمّها عنوان البحث من خلال الدلالة اللغوية والمعنى الاصطلاحي، في حين ضمّ المبحث الأول الزمن الواقعي والذي تمثل بزمان عاشتها الشخصية العراقية تحت ظروف التشظي والعمّة فامتزجت الذات مع الزمن بكل أشكاله، أما المبحث الثاني فتناولت فيه الزمن التاريخي (الأسطوري) الذي يشير إلى التاريخ المتصل بالأحداث الروائية، والتي تُعدّ بمثابة وثيقة تاريخية تعطي للحدث قيمته، وجاء المبحث الثالث عن الزمن الدستوبي فجسّدت فيه تداخلاً سردياً التحمت فيه كل المكونات النصية فأنتج نوعاً من التعالق الزمكاني، ثم خُتم البحث بجملته من النتائج التي خرج بها هذا البحث.

² د. ، كلية التراث الجامعة، العراق، Shameemradi@gmail.com

اعتمدت في هذا البحث على جملة من المصادر والمراجع بما احتوته المكتبة الأدبية والروائية والنقدية، فإن كنت قد وفقت فمن الله وحسن توفيقه، وإن تكن الأخرى فمن نفسي، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

قبل البدء بالحديث عن الزمن العقيم في الرواية العراقية لابد من معرفة معنى الزمن العقيم عند أهل اللغة والاصطلاح ليكون القارئ على دراية تامة بمعنى هذين المصطلحين.

أولاً: الزمن لغة:

قال الأزهري: "الزمن من الزمان: والزمن ذو الزمان، والفعل زمن يزمن زمناً، وزمانه والقوم زمناً: وأزمن الشيء: طال عليه الزمان.

شمر: الدهر والزمان واحد. وقال أبو الهيثم: أخطأ شمر، لأن الزمان زمان الرطب والفاكهة، وزمان الحر والبرد، ويكون الزمان شهرين إلى ستة أشهر، قال: والدهر لا ينقطع.

قلت أنا: الدهر عند العرب يقع على قدر الزمان من الأزمنة، ويقع على مدة الدنيا كلها، سمعت غير واحد من العرب يقول: أمنا بموضع كذا دهرًا، وإن هذا المكان لا يحملنا دهرًا طويلاً، والزمان يقع على الفصل من فصول السنة، وعلى مدة ولادة وال، وما أشبهه" (الأزهري، 2001، صفحة 13/159).

وقال ابن فارس: "الزاء والميم والنون أصل واحد يدل على وقت من الوقت، من ذلك الزمان، وهو الحين، قليله وكثيره. يقال زمان وزمن، والجمع أزمان وأزمنة، قال الشاعر في الزمن:

وكننت امرأ زماً بالعراق عفيف المناخ طويل التغن (الأعشى، د. ت، صفحة 2)

... ويقولون: "لقيته ذات الزمن" يراد بذلك تراخي المدة" (ابن فارس، 1979، صفحة 3/23).

وأما اصطلاحاً:

فالزمن بفتح الميم هو الزمان؛ أي العصر، فهو اسم لقليل الوقت وكثيره 4 (البركتي، 2003، صفحة 109)، والجمع أزمان وأزمان وأزمنة، وأزمن بالمكان: أقام به زماناً، وزامن فلاناً مزمنة وزماناً: عامله بالزمن. (عبد المنعم، د. ت، صفحة 2/207)

ثانياً: العقيم لغة:

قال ابن فارس: "العين والقاف والميم أصل واحد يدل على غموض وضيق وشدة، من ذلك قولهم حرب عقام وعقام: لا يلوي فيها أحد على أحد لشدتها، وداء عقام: لا يبرأ منه.

ومن الباب قولهم: رجل عقام، وهو الضيق الخلق. قال:

أنت عقام لا يصاب له هوى وذو همة في المثل وهو مضيع" (ابن فارس، 1979، صفحة 4/75)

وأما اصطلاحاً:

فهو الذي لا يلد، ومنه رجل عقيم: لا يولد له، والجميع: عقماء، وامرأة عقيم: لا تلد، والجميع: عقام وعقم، قال الله تعالى: {وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا} (سورة الشورى: 50) وريح عقيم: لا تفتح شجراً ولا تنشئ سحاباً ولا مطراً، قال الله تعالى: {وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم} (سورة الذاريات: 41). (الحميري، 1999، صفحة 7/4661).

وإذا كانت النظرة الحديثة إلى الزمن تراه على أنه لحظة حاضرة مترامية الأطراف يظهر فيها الماضي غير منتظم وغير مرتب، وكلمة الحضور أي الحاضر الزمني أو ما هو إلا كائن له قيمة نسبية دائمة الحركة، وإن العلاقة بينه وبين الزمن أقرب إلى الصراع الزبقي بين الاثنين (العدواني، 2011، الصفحات 200-201)؛ فإنه ليس بوسعنا القول إن الزمن هو نقطة انطلاق الرواية، فالروائي يختار نقطة بدائية، ويضع الأحداث على مستوى زمني يتأرجح بين الماضي والحاضر والمستقبل، وأن هذا التنقل الزمني يعد تنقلاً مهماً؛ إذ يمكن الروائي أن يوهم القارئ على استراتيجية التعامل مع الزمن بشكل أكثر عمقاً وإدراكاً، لاسيما إذا كان "بالذاكرة المتجولة وفق طبيعة اللحظات النفسية المتباعدة إضافة إلى الحدث الذي يأخذ ابعاده انطلاقاً" من واقعة غير محدودة، بل خاضعة لطبيعة الإشاعة، هذه الأخيرة التي تتيح استحضاراً وتأويلات نفسياً لشيء وفق طرق مختلفة تخضع بالأساس لذاتية المستحضر الأول" (العدواني، 2011، صفحة 203).

أكدت د. سيزا القاسم على أهم بعدين يمثلان هيكلية الزمن، الأول والذي يتمثل بخيوط تتسج منها لحم النص، أما الآخر فيتمثل الخطوط العريضة السقايات التي تبني عليها الرواية. وقد أطلق على الأول الزمن النفسي أو الداخلي، أما الآخر فهو الزمن الطبيعي أو الزمن الخارجي، هذا التصارع بين الزمنين يؤد للقاء عنصر التشويق وتماسك يبعث الرغبة لمسيرة أحداث الحكاية فتترك أحياناً تشظياً زمنياً يدور حول ذاته، وينتج عن هذا التشظي تجزئة لمفاصل زمنية ضيعت فيها خط

الأثر الزمني، ويظهر البعد السيكولوجي في الشخصية كدالة ينتج عنه زمناً نفسياً، يتشظى فيه تاريخ الاندحارات والصراعات التي آلفت ركامها على أحداث الحكاية) (القاسم ، 2004، صفحة 41).
فالتشويق وسرعة الحركة ما هي إلا تجسيد لثيمة الزمن بالرواية، وإن تطورت الأحداث وبيد الصراع تدفعها العقدة إلى حلّ عنصر الإثارة، فهي بذلك تمثل مرحلة التأزم، ولا بد أن تعكس طبيعة التعامل الراوي مع الزمن (محفوظ، 2014، صفحة 129).

والرواية بطبيعتها هي فن الزمن بامتياز تلتقطه وترهنه وتتحايل عليه لتخرجه منسجماً مع المضامين السردية ولا يتحقق هذا الفن إلا بواسطة اللغة والتي تعد أداة زمنية كونها تتكوّن من مجموعة من الأصوات المقطعة إلى مقاطع، وبهذا المعنى تكون اللغة الدالة تشكياً معنياً لمجموعة المقاطع والسكنات والحركات خلال الزمن، أو هي في الحقيقة تشكيل للزمن نفسه تشكياً يجعل له دلالة معينة (إسماعيل، 1994، صفحة 42).

لقد استولت الرواية أيضاً على القصص والحكايات التي تصوّر عجز المجتمع عن مجابهة الواقع المتمثل بالسلطة، ولم يأت الحديث عن إرادة التغيير والإصلاح، ممّا يجعل المستوى الذي تدور حوله تلك الإرادة عقيم وسديم فضلا عن سعيها الدؤوب إلى ملاحقة الواقع والتاريخ وما يكتنفهما ويعانيهما، فثرائنا السردية "هو الأكثر تمثيلاً لذاكرتنا وهويتنا ومخيلتنا لارتباطه ارتباطاً وثيقاً باليومي المعيش وبالتاريخ الموهل في الزمنين الواقعي والثقافي. (يقطين، 1992، الصفحات 143-144)

وعلى هذا الأساس تتعمّق المفارقة الزمنية بالتعامل مع الواقع، وهذا ما يفضي إلى توسيعه، وجعله يراوح مكانه، ممّا يجعل الذات قائمة في النص، متمكنة منه.

المبحث الأول: الزمن الواقعي

على الرغم من الحضور اللافت للواقعية والتي كانت لها الحصة الأكبر في الرواية العراقية، إلا أننا نجد أن أغلب الروايات حاولت أن تحوّل تراجمها المأساة العراقية ونزف الدم والكرامة إلى صيغة أدبية يمكن التفاعل معها بروية واضحة، رؤية الروائي المبتعد نسبياً عن حيثيات الحدث المغرقة بالواقعية من حيث الزمان والمكان، ليضع أمام القارئ خلاصة تجارب شعب عاش بين الجحيم والنار من جهة وبين العوز وهدر الكرامة من جهة أخرى، لذا فالرواية العراقية ساهمت في تشكيل وعي جديد يلتئم مأساة الماضي ومرارة الحاضر ليجد حلولاً قد تكون إنسانية وواقعية أكثر من كونها مجرد تخمين. (السكاف ، 2014، الصفحات 17-18).

وتتجلى حقيقة الزمن الواقعي في رواية (نبوءة فرعون) من خلال التجربة الحياتية لشخصية كل من (بلقيس، وهنية، ويحيى)، إذ إنّ انتقال الروائية بين فضائين يكشف لنا عن مدى تقارب المسافة الزمنية ومدى تباعدهما، ولعل أبرز ما يتسم به زمن رواية (نبوءة فرعون) قيام ثلاثة أبعاد رئيسية يحيل الأول على زمن واقعي يدعم وجوده مجموعة من الوقائع والأحداث مرتبطة بشخصيات الرواية التي تمتلك وجوداً حقيقياً وتتصل بفضاء مرجعي، أما الثاني فيجسد زمناً أسطورياً ينتزع إلى المطلق لذا جاءت مشاهدته وبعض شخوصه على شكل عجائبي وفي عالم فتنازي لتقوية الإحساس بلا تاريخه (السعدون، 2015، صفحة 184)، فضلاً عن هيمنة الزمن النفسي الذي غطى مساحة كبيرة، كونه الزمن الوحيد الذي يعبر عن آلام الشخصية وأوجاعها.

يشير الزمن الأول إلى وقائع متنوعة، جاءت أغلبها إلى تاريخ محدد وإشارات جعلت القصة تنبثق منذ حرب الخليج والحرب الأمريكية بعد عام 2003م، قصة الشجن العراقي الذي رافق حياة الشخصية وما يروي عن زمن يجعل السرد في النص ضرباً "يروى أحداثاً" ماضية وحاضرة متشظية، تقول الساردة: "جاءها المخاض في ليلة كونية مظلمة، فولدته على سجادة تخطي الأرض في غرفة النوم، وقطعت حبل الخلاص بيدها في ضوء لالة مكسورة زجاجتها متروسة بالسخام، فلم تر وجهه النوراني النحيف جيداً" في تلك اللحظة العصبية ولا رآه أبوه منصور الذي يخوض في المياه الطامية بين أرض الكويت وأرض العراق" (هادي، 2007، صفحة 65).

ففي هذا المقطع يأتي (الماضي والحاضر)، ليؤكد تداخل الأزمنة، فالأول السرد الذي يقتضيه زمن لحظة ابتداء مرحلة جديدة هي ولادة (يحيى) ابن بلقيس، استرجعت (ميسلون هادي) مرارة تلك الأيام والتي لا زالت حاضرة في وعي الشخصية، فاللحظة الصعبة التي مرّت بها بلقيس كانت بمثابة استغراق زمني ينقل الإنسان من مكان وزمان آخرين، وتجربة الولادة والصراعات النفسية والأجواء العصبية التي اجتاحت الشخصية كانت المخفر الأول السردية لهذه الرواية والدليل أنّ الروائية شرعت منذ البداية في تقديمها مباشرة في مقطع البداية، فالجمع بين لحظة (الولادة، والآلة المكسورة متروسة بالسخام) دلالات (التلاشي والتمزق الذاتي).

أما السرد المتزامن فتستدعي الأفعال المضارعة الدال على الزمن الحالي، ولأنّ الروائية أجرت أحداث سردها في "نهاية القرن العشرين وأواخر العصر التلفزيوني الوسيط، وهو العصر الذي بين أيام أورزدي باك وليالي الستاليت، أي العصر الذي بين أعوام الموسكوف وسنوات المنفيست" (هادي، 2007، صفحة 17).

فإنّ ما وقع فيه من أحداث وتداخل بالأزمنة لا يزال يتمدد على بقية العصور، وهذه الرؤية بحد ذاتها رؤية سكونية للتاريخ القديم الذي اجتاحت بغداد في تلك الحقبة، أي في بداية وقوع الحرب، حينها وضعت الحرب أوزارها وتوقفت عجلة الحياة بسبب استمرار الخراب والدمار في العراق عامة وفي بغداد خاصة.

ويتأرجح الزمن في رواية (قيامة بغداد) للروائية (عالية طالب)، من خلال إعلان الراوي جملة من الانكسارات والإحباطات لقاء فضاء متعدد الدلالات، يأتي على شكل محطات متلاحقة تتماهى مع رؤية الشخصية. فعند مرور الشخصية لأحد جسور بغداد المعروف بـ (جسر الصرافية)، كان لها "رغبة بإيجاد جسر مشابه لجسر الحديد الذي افتتح عام 946م في بغداد وارتبط في ذاكرتنا جميعاً بأحداث قريبة وبعيدة تلك الرغبة كانت أشبه بنبوءة للحفاظ عليه وعلى ذكره، بعد أن تم تفجيره يوم 2007/4/11" (طالب، 2008، الصفحات 18-19).

نظراً لما سقط في نهر دجلة جراء الحرب الأمريكية على العراق 2003م، فهذا الاضطراب الزمني ظهر ثيمته من خلال التنوّع بين الفضاء الزمني والتاريخي، وعلى هذا فإنّ الإجراءات الزمنية تركزت حول مكان واقعي وهو (الجسر)، وفي هذا المكان تظهر دلالاته الحقيقية إلا وهي ثبات المكان وتحرك الزمان إذ وضعت الساردة في ذاتها زمناً وجدت نفسها مبعثرة تقف أمام أحداث توجّ خطابها في تمرد يصارع فيه الزمن.

وإذا نظرنا في التقابل بين الزمن التاريخي (الأسطوري)، والزمن الكوني، اللذين يعدان خاصية موضوعية للزمن الطبيعي وجدنا أنّ الزمن التاريخي "يمثل إسقاطاً للخبرة البشرية على خط الزمن الطبيعي، وهو يمثل ذاكرة البشرية، يختزن خبراتها مدونة في نص له استقالة عن عالم الرواية، ويستطع الروائي أن يغترف منه كلما أراد أن يستخدم خيوطاً في عمله الفني" (القاسم، 2004، صفحة 68).

إنّ الخوض في روايات بعد التغيير يكشف لنا مبدأ استبدادي للسلطة الحاكمة في العراق منذ حرب الخليج والحرب الطائفية والاحتلال الأمريكي وإلى يومنا هذا، فهي بهذا تكشف لنا عن المبدأ الاستبدادي الذي استخدمته السلطة وجوهرها وعن التقابل بين الأزمنة الأخرى.

المبحث الثاني: الزمن التاريخي

أغلب الروايات تستحضر العديد من الشخصيات المعروفة تاريخياً، وتجعلها تعيش الرواية، لذا فقد شيدت تاريخاً وواقعاً روائياً، وشبكتهما بالزمن الروائي، إذ يمتزج الماضي بالمستقبل، والمستقبل بالماضي، أو يعمل على التداخل بين الأزمنة الثلاثة، ماضي، حاضر، مستقبل، مع بعضها بعضاً، كما هو الحال في الروايات المعاصرة إذ يسعى الروائي إلى إعادة بنائها على مراحل، تلك هي طريقة الروائي التي بلبلت الزمن، متعمداً في ذلك كونه التي يلجأ إليها حين يعيد التفكير في حياتنا عن طريق سير جزئي لا عن طريق تسلسل كامل. (سلمان، 2005).

ولعل قصة (ألف ليلة وليلة) التي روتها (بلقيس) لولدها (يحيى) جاءت كمعادل موضوعي لرجل اسمه (بلوقيا) الذي عاش قبل زمن الرسول محمد ﷺ، إذ حاول جاهداً أن يكون سائحاً في ذلك الزمان حتى يلتقي بالرسول محمد ﷺ، فقال صاحبه عفان عنه إن "زمان محمد بعيد وإنه يبعث في آخر الزمان ولا يجتمع به إلا من يعيش ذلك الوقت، ولا يعيش ذلك الوقت إلا من شرب من ماء الحياة من دخل بحر الظلمات" (هادي، 2007، صفحة 98).

وبهذا استبعدت الروائية النقاء (بلوقيا) بالرسول محمد ﷺ، لأنّ زمن الشخصية لا يمكن أن يلتقي مع زمن الرسول ﷺ لهذا تتبلور قيمة الزمن في النص بتجليه حال الشخصية وطغيان الزمن الأسطوري المتّمس بالعجائبية، فلو عاش (بلوقيا) في آخر الزمان وشرب من ماء الحياة ودخل الظلمات، وحصل على خاتم سليمان (عليه السلام).

ولئن أكدت الروائية منذ عتبة الرواية إلى وجود زمن أسطوري فهذا دليل على استخدامها لأحداث خيالية استوحتها من القصص الخيالية والفتنازية، وهي بحد ذاتها سمة من سمات الرواية الغرائبية التي تجعل الخيال عنصراً مهماً لها، ويضفي عنصر هذا الزمن عنصر اللانهاية وهذه الصفة تسود الأساطير خاصة والقصص الخيالية (الفتنازية)، وتبدو هذه الظاهرة متجلية في قصص (ألف ليلة وليلة) التي روتها (بلقيس) لولدها (يحيى)، والتي ترمز إلى أبدية الحياة والخلود، يقول (يحيى):

" _ ولكنني أريد أن أعيش إلى الأبد.. ولا أموت

حسناً يا ابني.. ستعيش إلى آخر الزمان.. ولن تموت" (هادي، 2007، صفحة 98).

فما كان جوابها إلا أملاً بالحياة الأبدية، ولا مجال للموت ما دمنا نعيش إلى الأبد. إنّ الحركة الدائرية احتكمت الرواية وارتبطت بـ (الخلود) و(تجدد الحياة)، فالزمن هنا تمثّل في المناخ الذي تعيشه الشخصية.

وعلى الرغم من خلو أغلب مقاطع الحكاية من تواريخ فلا يعلم القارئ من أي يوم أو سنة وقعت هذه الأحداث فضلاً عن الاستعانة بظرف الزمان المبهم (زمان محمد) (آخر الزمان)، هذه المفارقة تدلّ على إهمال الروائية للزمن الخارجي بغية النظر إلى زمن أفضل، وهو زمن الرواية.

عمدت (ميسلون هادي) إلى الاستعانة بتقنية التلخيص كي تجعل من إيقاع الزمن في النص، موسوماً بالانكسارات والتداخلات فكان لدمج الزمن الأسطوري بالماضي الحاضر والتداخلات في محاولة خلق زمنٍ مثالي يروق لتوجهاته وموافقته للأزمنة المتعاقبة.. كما أنّها تعبّر عن مشاعر الشخصية ورؤيتها وتمنح القارئ فرصة التنقل بين أبعاد الزمن

الروائي في حركة تلقائية طبيعية دون أن يشعر بالانعطاف المفاجئ وتغيّر مسار الزمن الروائي وبالتالي ليست أحداث الماضي مجرد قوالب جامدة جاهزة وإنما هناك محفّزات تلعب دوراً أساسياً في وجود الماضي، ومن هنا يكتسب الزمن وظيفة أيديولوجية تصرّح بروية تاريخية 22 (القصراوي، 2004، صفحة 202).

تكفل الرواية أن تتحكم في شخصياتها، كما وأن ارتباط عالم الرواية بالروائية واتصاله بذاتها جعل من "إيقاع الزمن ضرباً من تنظيم حضور ذات الراوي في الخطاب، ونمطاً من أنماط خلقها وتنسيقها فلا تلاقى فصول الرواية في تلبية مضمونها باتصالها الحميم بالراوي، فإن ما جاء فيها من أحداث لم يتلاقى تلاحقاً يقتضيه منطق حكاية مؤدى ببداية ونهاية يؤول إليها" (السعدون، 2015، صفحة 180)، بمعنى أن هذا الضرب من الزمن يرتبط بالشخصية لا مع زمنها أو زمن الحدث والرواية، وهذا ما يطلق عليه (الزمن النفسي) أو الزمن الداخلي، ولقد ركزت (لطيفة الدليمي) على هذا الزمن لشخصياتها وحصرها (حياة) الشخصية الرئيسية في الرواية، إذا كانت حياتها تتمدد بانسيابية مع زمنها النفسي، فتجعله مضطرباً حين تتداخل وتتواشج في ذاتها، إذ تقيس أيام الست (حياة) بالمرارة وتقاس لياليها بثبات القلب وقدرتها على احتمال المصاعب وتحسب عمر ابنتها (ميساء) بسنوات الفقد، إن النظر في حقيقة انتظام الأحداث التي اتصلت بشخصية (حياة) يكشف لنا انضوائها ضمن زمن دائري فعلى الرغم من كثرة التجارب التي خاضتها (حياة) فإنها لم تغير من واقعها شيئاً (ممدوح، 2001، صفحة 38).

إن أهم ما امتازت بها رواية (أجنبية)، انتقالاتها بين الأزمنة فمرة تتحدث عن عام 1996م، وترجع إلى عالم 1973م لتعود مرة أخرى إلى عام 1999م ثم تذهب إلى عالم 2009م، لتعود إلى عام 2001م، وهكذا تنتقل بين الأزمنة، وربما تتيح هذه الانتقالات الانسيابية والتشويق ما لا نجده في الالتزام الصارم بالتسلسل الزمني، وعلى هذا تتبلور قيمة الزمن في النص بتجليه حال الشخصية وإدراكاتها الداخلية في المتداوية والمتولدة من تجارب الخارج المتقلقل في مبادئه وثوابته، وإن هذا الاضطراب في النسق الزمني للحكاية هو تمكّن الزمن النفسي من النص تمكناً أشاع فيه جواً مشبعاً بالقلق والتوتر؛ ذلك أن الرواية متعلقة بشخصية حائرة ومترنحة في آلامها بين الداخل والخارج (ممدوح، 2001، صفحة 38). لقد أفضى زمن ما بعد التغيير وظائف متنوعة تراوحت ما بين التلميح والرمز والاستطراد والتقرير إلى طرح شيء آخر في الحياة يستحيل أن يلتقي بزمن أسطوري أو تاريخي أو واقعي، وهذا "ما يمكن أن نطلق عليه كلمة مناسبة هي (القيمة)، فالقيمة شيء لا تقاس بالدقائق والساعات" 26 (فورستمر، 1994، صفحة 25)، وإنما تقاس بتضخم الأحداث وسيرورتها بشكل يتناسب مع حساب المروي وتأمل الراوي في انتظام الأحداث وتشظيها انطلاقاً من مفارقات زمنية، وهناك نسق من الزمن تغلغل في دهاليز الرواية العراقية.

المبحث الثالث: الزمن الدستوبي

هذا الزمن قد يكون مغايراً للانساق والأشكال الزمنية، وقد رسم الروائي لهذا النوع من الزمن صورة متشائمة بدءاً من الألفاظ وحتى العبارات والرموز إذ نظر الباحثون إليها نظرة ليس بلفظها بل كـ (مأساة)، وبرؤية فكرية، فمنهم من نظر إليها كـ (دستوبيا مكانية)؛ إذ يعيش المواطن الضغوط والسجون والحصار، ومنهم من نظر إليها (دستوبيا زمانية) على عِدّ أن تناقضات الواقع وملاساته كان له دور كبير في عتمة الواقع وانعكاسه على الكتابات الروائية (عبد، 2017، صفحة 145).

فالدستوبيا في حقيقتها هي "رؤية متشائمة للواقع والمستقبل، يمكن أن تفرزه مناخات الصراع السياسي والقمع في النظم الشمولية والفاشية" (أبو العينين، 2012)، لذا إن ذبوع مفهوم اليوتوبيا لم يعرقل نقيضه الجدلي (الدستوبيا)، فالصورة الزمانية الدستوبية ارتبطت ارتباطاً جوهرياً بصورة الحدث الأيديولوجي المأسوي، فالحدث الذي صوّر صراعات العنف والقتل وما يترتب عليه من عقوبات وتأثيرات أيديولوجية نفسية وسياسية انعكست بدورها على سيكولوجيا الشخصية فليس للحكايا وقت ولا للزمان وجه، وإن الأزمنة تداخلت حتى تشابهت لا سيما بعد أحداث العراق بعد 2003م لكون هذا الزمن كان ولا يزال له دلالة خاصة من حيث إيقاعه النفسي الداخلي (عبد، 2017، صفحة 156).

فالزمن في رواية (أوراق سيدة الشجر) يدور حول نفسه ليعلم عن تظاهر بنية دلالية دستوبية تتشكّل من خلال علاقة تفاعلية بين زمن (الأنثى) و(الزمن المنشط)، زمن تعيشه الشخصية الرئيسية (سلمى)، يقول السارد: "أمضيت شهوراً أقرأ وأكتب خفية دون أن أذرف دموعاً واحدة ذلك الوقت تأملت مصيري كما لو أن السماء قد برأتني وقد تحولت إلى شخصية أخرى" (علي، 2013، صفحة 19)، لقد اقترنت أفعال هذا المقطع بصيغة الفعل الماضي (كان) وهذا يدلنا على دلالة الانقضاء، فالمفارقة الزمنية المتجلية في فقرة (أكتب، أقرأ) إلى ما (تحولت) ما هو إلا دليل على سرد تضمّن سردين متباينين، الأول: سرد منقضي تحدد فيه حالة الشخصية وهي تعاني الاغتراب الذاتي المتجسّم أوضاعها في السجن، والآخر: انعطاف الراوي إلى زمن الحاضر الممتد إلى المستقبل، وهكذا امتدت العلاقة الدستوبية بين زمنين متشظيين، وقد أضحى هذا الزمن ثقيلًا بطيئًا وكأنه جامد لا يتحرك لأنه زمن الأوجاع والآلام، وقد حدّده الراوي بأشهر وليس بساعات، فهو بذلك تجاوز زمن (الأنثى) لثقله وتعاسته، وعلى هذا تتعمق جراحات الذات (الأنثى) لتنتج تغييراً لشخصية (سلمى) إلى شخصية أخرى.

وفي رواية (نبوءة فرعون) تسعى الساردة إلى تشكيل حلم يقع خارج حدود الزمان والمكان، زمن يتقاطع ويختلط بأبعاده فيخلق هذا الاضطراب حالة دستوبية ضبابية تعيشها الشخصية في ظروف غامضة ففقدت فيها بلقيس (يحيى)، فحين سألت جارتها (كحيلة) عن (يحيى):

"أما رأيت يحيى؟"

— فقالت لها كحيلة وشعرها يتطاير في الهواء

— نعم، رأيته من هنا في الصباح الباكر.. بعد صلاة الفجر احتجت شاكرين بقوة على هذا الكلام، وقالت لهم إنها رأيته يخرج في الليل.. قبل الانفجار" (هادي، 2007، صفحة 142).

وأمام تعاقب الليل والنهار، تقف (بلقيس) حائرة متسائلة عن هذا التعاقب الزمني، فانحصرت بين تعاقبين (الصباح والمساء)، ففي زمن الصباح الباكر وتحديداً بعد صلاة الفجر رأت (كحيلة)، (يحيى) يمرُّ من أمام بيتهم لكن (شاكرين) عارضت الكلام، بقولها: "خرج في الليل قبل الانفجار".

إنَّ حياة (يحيى) وما فيها من تحولات محكومة بالضيايح أثر على كثير من أفراد أسرته، وقد ارتبط زمن ضيايحه بزمن مجهول راهن، فالدلالة الغائبة مقصودة ويتحدد ذلك من كون (يحيى) هو المطلوب من أمريكا بالإيابة، لأنه يهدد مستقبلهم؛ لذلك أصبح وهمهم يخيّل إليهم أنهم قتلوه عندما أطلقوا الصاروخ، غير أنَّ ذلك لم يحصل لأنه وقع في الفلاة، إذن غياب (يحيى) لم يكن موتاً فضلاً عن أنه مجهول الكيفية التي غاب فيها.

فالأمل المرتقب الذي يحدده أفق الانتظار وحلم العودة عبر التعلق الدلالي الذي يربط (يحيى) بطل الرواية بعيسى (عليه السلام) بقوله تعالى "والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً" (سورة مريم، 33)، لذا فالعودة مرجوة يتمسك بها الخطاب الأنثوي عبر الحياة المهجنة قرانياً. وقرار العودة مطبوع في قلب (بلقيس) لكن لا يمانع مشاعرهما اتجاه الواقع المعاش لذا فإنَّ "أربعون يوماً مضت ومنذ أن سمعت بلقيس قول (كحيلة) هذا ولأول مرة وهي تستنسخ من صورته الوحيدة التي سجلته بها في المدرسة صوراً عتيده (لليحيى) وتضعها على أبواب الخبازين، ومرت العربات تباعاً على توفيق وبلقيس مثلما تمر وتفعل كل يوم" (هادي، 2007، صفحة 150).

ومن هنا فـ (بلقيس) تعيش حالة الانتظار والقلق، ومع مرور الأيام والساعات تتأمل العودة التي أمضت عليها أربعين يوماً لكن دون جدوى، انتهت فيه زمن السرد، ولم تشهد أي تحرك إيجابي وما كان عليها إلا لصق صورته في الشوارع وأبواب الجوامع والعربات لعلها تجد سبيلاً وأملًا في رجوع الغائب (يحيى).

ولعلَّ الإحساس الزمني في وعي الروائية انعكس على التداخل الزمني بين موقعها الذي تنطلق منه الحكاية وماضي الشخصية، وهذا ما جعل زمن الروائي زمن دائري يفقد فيه معناه، ويخلع على القارئ رداء الانتظار، ليدخل إلى زمن آخر أطر الرواية بأكملها إلا وهو الزمن الدستوبي العقيم.

وتتغلب على رواية "أولاد همدان" للروائي (راسم عبد القادر) المفارقات الزمنية إذ تمثّلت بالاسترجاع والاستباق فضلاً عن طغيان الأساليب السردية كالحلم، والمناجاة، والتأويل هذه التداخيات جعلت إيقاع الزمن في النص متذبذباً دستوبياً فلم يكن الخوف والذكرى المريرة والمشاهد المؤلمة وحدها من يشعل أو يوقظ رائحة الذاكرة بل هناك الإحباط والألم والتشظي النفسي الذي جاء مكملاً لصورة المأساة، يقول الروائي: "في العاشرة صباحاً، سلكت بضع سيارات طريقها إلى مقبرة الكرخ، تتقدمها تلك التي ربط عليها تابوت حمدان أو راحت جميعها تنهال بموكب جنازي معتاد" (عبدالقادر، 2015، صفحة 9)، يتبع (راسم عبد القادر) خطوط الماضي الجريح، ليكشف لنا أوراقاً كان لا بد لها أن تطرح إلى الناس كآرشفيف موت الوالد حمدان، الذي كان بمثابة حلم وصدمة لأولاده.

إنَّ هذه الفوضى العارمة المحكومة بالأحاسيس والذكريات ما هي إلا صورة لواقع عاشته الشخصية العراقية، كانت محكومة بصرخات من الألم والمشاعر المفاجئة، وما نراه في النص أنَّ الروائي يتحدّث عن ذاته مسلطاً الضوء على تجربة اجتماعية في مرحلة من مراحل عمره حاول أن ينقلها إلينا، فالسرد هنا كان بمثابة حوار باطني متسع يترامى بين صفحات الرواية.

فالموت نتيجة حتمية، ورؤية سكونية لا بد منها، وحقيقة الزمن المعتم في الرواية كانت في نسبته ونمطه وجوهه في العراق، وحين سألت إذاعة (بي بي سي) أثناء مقابلتها لمواطن عراقي عن وضع البلد كانت إجابته: "كلا منذ رأيت العراق هو هكذا، لا أحد يعجبه أحد — لماذا ترى الأمر معقداً وتعتقد أنَّ البلد سيبقى هكذا؟ — التاريخ يقول الكثير عن العراق المغول والعثمانيون والصوفيون ثم جاءت الثورات لتقتل من قبلها ثم تقتل بعضها بع استلام السلطة" (عبدالقادر، 2015، صفحة 384).

وقد الح الروائي على استمرار وجه المعاناة وتكرارها، إذ جعل تحولات الأحداث على امتداد الزمن المتشظي مقياساً لحياته، وسيرته الذاتية، فبعد فاجعة الأب: "انتهى لقاء العائلة بعد وفاة أبيهم من دون نتائج، فلم يتخذوا أي قدر، ولم يبحثوا التفاصيل! اعتبروا هذا اللقاء خطوة متقدمة بعدما أصابهم من انكسارات متتالية وسريعة" (عبدالقادر، 2015، صفحة 25).

إنَّ النظر في سياق الزمن التي اتصلت بعائلة (أولاد همدان)، يكشف انصوائها ضمن زمن دائري مغلق، فعلى الرغم من كثرة التجارب التي خاضها (أولاد همدان)، فإنها لم تغير من واقعهم شيئاً؛ إذ كلما خطو خطوة ارتد على أعقابهم حسيراً لنتهي بحياة مختومة بالضيق كالتّي عاناها بالزمن الأول، فنسمع من الراوي يقول: "لا مبرر لخوفنا" من الموت إذ لا مفر منه! فهو طريق جميع البشر ونهايتهم الحقيقية! وهكذا كان صباح يقرأ ويعيد ما قرأه من آيات قرآنية تعلّمها وحفظها في سني دراسته، وكان يقرأها كما يتذكرها وليس كما ينبغي... الوقت يتقدّم بشكل سريع باتجاه ساعة الصفر، ليلة 24-25 نيسان يجلس ويدور ويستلقي على بطانيته وينظر برعب لحظات التنفيذ" (عبدالقادر، 2015، صفحة 373). فليس للرواية وقت ولا للزمان وقت؛ لأنّ الأزمنة تداخلت حتى تشابهت، لتدلّ على أنّ الأزمنة التاريخية والدستوبية التي مرّت بالعراق، إلى حتى الآن نسخة مكررة في أحوالها، وإنّ انسلال هذه الأزمنة التاريخية تترجّع لتكشف عن بؤس في مواجهتها لوجودها اللامتناهي، وزمنها المخترق حدود الزمان والمكان.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الممتعة التي قضيتها مع الزمن العقيم في الرواية العراقية المعاصرة، سعيت فيه إلى تقصّي الزمن في الرواية العراقية وقدّمت تحليلاً موجزاً عن مفهوم الزمن الروائي ودلالاته في الرواية، وعن أهم الأزمنة التي اجتاحت الرواية وتمخّض البحث عن أهم النتائج:

1. عبّرت الرواية عن واقع البؤس والحرمان الذي جنح في أحداث بغداد قبل وبعد عام 2003م، إذ اتسم زمن الروايات في قياسه على أكثر من بُعد، وأغلبهم كان يحيل إلى زمن واقعي يدعم وجوده التاريخ ومجموعة من الأحداث التي ارتبطت بشخصيات الرواية والتي بحد ذاتها امتلكت وجوداً حقيقياً.
2. انطلق الزمن في الرواية لغرض تقوية الإحساس لينهض بالقديم ليتزاوج مع الحدث الراهن إلا وهو الزمن الأسطوري الذي لا زال يتمدد على بقية العصور.
3. إنّ التشاكل بين أحداث الرواية العريقة جعل الزمن يدور في مكانه؛ إذ انساق وراء أطيايف الليل والنهار إحساس التكيف بالخطاب، وهذا ما يدعو الراوي العراقي إلى إحياء الزمن الداخلي إذ يتلاعب به كيفما يريد، فيكون رهيناً لتأملاته وتصويراته الأيديولوجية.
4. بدأ الواقع المترامي متلبساً بأزمنة متعددة ولم تحدد زمناً معيناً ليكون المقياس الأوحد لشخصياتها، فالماضي والحاضر هو الأكثر جدلاً في الرواية، وهذا ما انعكس أثره على الجانب الشكلي في الرواية لاسيما إنّ مصير أغلب الشخصيات لم يحدد مع نهاية الرواية.

المراجع

- أبو منصور (ت 370 هـ) الأزهري. (2001). تهذيب اللغة (المجلد الأول). (تح: محمد عوض مرعب، المحرر) بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- أحمد (ت 395 هـ) ابن فارس. (1979). مقاييس اللغة (المجلد د. ط). (تح: عبد السلام هارون، المحرر) دار الفكر.
- أحمد العدواني. (2011). بداية النص الروائي مقارنة لأليات تشكيل الدلالة. بيروت: النادي الأدبي.
- أدوارد فورستمر. (1994). أركان الرواية (المجلد الأول). (موسى عاصي، و برس جروس، المترجمون) لبنان.
- أنيسة السعدون. (2015). الرواية والايديولوجيا في البحرين (المجلد الأول). بيروت: دار فارس.
- حسين السكّاف. (2014). الرواية العراقية صورة الوجود العراقي (المجلد الأول). بغداد: دار الرواسم.
- راسم عبدالقادر. (2015). أولاد حمدان. بغداد: دار العلوم.
- سعيد يقطين. (1992). الرواية والتراث السرد (المجلد الأول). المغرب: المركز الثقافي الجديد.
- سيزا القاسم. (2004). 1. بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ. مكتبة الأسرة.
- شميم عبد. (2017). الاتجاه الأيديولوجيا في الرواية العراقية (2003_2013)، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى جامعة بغداد، كلية البنات. بغداد.
- طارق أبو العينين. (2012، 11، 21). مصر الثورة من اليوتيبويا إلى الدستوبيا. جريدة الحياة (18128).
- عالية طالب. (2008). قيامة بغداد. دار شمس.
- عالية ممدوح. (2001). الأجنبية (المجلد الأول). بغداد: دار الشؤون الثقافية.
- عبد الزهرة علي. (2013). أوراق سيدة الشجر (المجلد الأول). بغداد: مكتبة عدنان.
- عبد اللطيف محفوظ. (2014). صيغ التمثيل الروائي، بحث في دلالة الأشكال (المجلد الخامسة). بيروت - لبنان.
- عز الدين إسماعيل. (1994). الشعر العربي المعاصر وقضاياها وظواهره الفنية والمعنوية (المجلد الخامسة). مصر: المكتبة الأكاديمية.
- محمد البركتي. (2003). التعريفات الفقهية (المجلد الأول). بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمود عبد المنعم. (د. ت). معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية (المجلد د. ط). دار الفضيلة.
- مها القصراني. (2004). الزمن في الرواية (المجلد الأول). بيروت: المؤسسة العربية.

ميسلون هادي. (2007). نبوءة فرعون (المجلد الأول). عمان: دار فارس.
ميمون بن قيس الأعشى. (د. ت). ديوان الأعشى. (شرح وتعليق محمد بن حسين، المحرر) القاهرة: مكتبة الآداب.
نبيل سلمان. (2005, 7 25). الزمن الروائي بين الواقع والتاريخ. تم الاسترداد من www.albayan.ae
نشوان (ت 573 هـ) الحميري. (1999). شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (المجلد الأول). (تح: د. عبد الله
حسين العمري وآخرون، المحرر) بيروت - دمشق: دار افكر المعاصر.